واسعد المطلوب الفار لتآمره على الدولة ، والمهدد بالسجن ، والمهدد بالمزواج من ابنة عمه التي لا يرغب فيها كما انه لا يريد الزواج ابدا ٠٠٠ (٥٧ـ٥٨ـ٦١)

ولما كانت اوضاعهم بائسة الى هذا الحد فانهم كانوا مندفعين في هذا السفر ومخاطره حتى الموت ، ذلك انهم كانوا مقتنعين ان حياتهم التي يعيشونها ليست افضل من الموت الذي يخاطرون فيه ٠ فمروان يتحدث عن زواج اخيه زكريا منتهيا الى التساؤل والجواب : « ولكن ماذا ترك له ليختار ؟ لا شيء غير ان يترك المدرسة ويعمل ، يغوص في المقلاة من هنا والى الابد ! » (٨٥)

وحين يفكر ابو قيس بخطر موته خلال السفر يأتيه الرد من داخله : « تموت ؟ هيه ! من قال ان ذلك ليس افضل من حياتك الان ؟ » ٠٠ وخلال السفر ذاته يستعيد الفكـــرة ذاتها : « اوتحسب اذن ان حياتك هنا افضل كثيرا من موتك ؟ » (٤٨ـ١٣٠)

وفي ارهاقه ووحدته وهو يقطع على قدميه الصحراء عند الحدود الاردنية ليتلافـى « الاتشفور » يتفكر اسعد الذي يحاول في السفر الهروب من خطر الاعتقال : « تراهـم لو حملوني الى معتقل الجفر الصحراوي ٠٠ هل سيكون الامر ارحم مما هو الان ؟ عبث ٠٠ الصحراء موجودة في كل مكان » ٠٠ الا ان وحدته في هذه الصحراء والتي يسير عليها توفر عليه ذل واهانة الاخرين له في « صحراء » اخرى (السجن) ، فهو يتذكر ، اثناء سفره ، حين اعتقل كيف ان الضابط « بصق على وجهه ولكنه لم يتحرك فيما اخـذت البصقة تسيل ببطء نازلة من جبينه ، لزجة كريهة تتكوم على قمة انفه ٠٠٠ » (٥٩ـ١٣١)

كذلك لم تكن حال كل منهم ازاء سمسار البصرة الا تأكيدا على هذا الوضع البائس حتى اليأس ٠٠٠ فمروان حين خرج من دكان السمسار السمين والصفعة التي نالها منـه لا تزال تترك اثارها على خده علامات كف هذا الرجل ، وقد فشل في تدبير امر سفره الى الكويت ، كان يعتبر انه هناك ، « داخل الدكان ، تقطعت اخر خيوط الامل التي شـدت لسنوات طويلة ، كل شيء في داخله ٠٠ » (٧١) وابو قيس يقف امام السمسار « حاملا على كتفيه كل الذل وكل الرجاء اللذين يستطيع رجل عجوز ان يحملهما ٠٠ » وهو اذ يفشل في الاتفاق معه على سعر يناسبه للسفر تتنامى غصة الالم في حلقه وتطفر الدموع الى عينيه تعبيرا عن ضياع آماله ايضا ووقوعه في الذل الكامل ٠٠٠ (٤٩) اما اسعد فـان اول فكرة تطرأ على رأسه اثناء حديثه مع هذا السمسار : « الطريق !٠٠ اتوجد بعد طرق في هذه الدنيا ؟ ألم يمسحها بجبينه ويغسلها بعرقه طوال ايام وايام ٠٠» (٥٣) لذلك فان الموت الذي انتهوا اليه ليس الا شكلا واحدا من اشكال موت متعددة يعلنها النص ٠ فان يقصر مروان عن الوصول الى الكويت يعني تبديد اخر امل لديه في ان يحمل الخير الى عائلته بعد ان فقد الامل في اكمال دراسته وتحقيق طموحاته ٠٠٠ (٨٥) وبذلك لا يكون عدم سفره الا وقوعا في اليأس الكامل بما يعنيه من عجز هو معادل للموت ٠

وان يمضي ابو قيس عشر سنوات « ككلب عجوز في بيت حقير » (٤٦) بانتظار حـل لوضعه الذليل لا يأتي ٠٠ فان فشله في السفر والعودة الى هذا الوضع أشبـــه بالمـوت مجددا ٠٠ فهذا السفر كان باب الخروج الوحيد الذي توصل اليه ليتخلص من تلك الحياة التي يفضل الموت عليها كما اشرنا آنفا ٠٠ وان لا يتمكن اسعد من الوصول الى الكويت